لسلطان عبد العزيز

تعريب

احمد صائب بك محمد توفيق جانا

حقوق الطبع محفوظة

الثمن عشرة قروش صاغ

طبع بمطبعة هنديه بشارع المهدي بالازبكيه بمصر

﴿ كلمة للمترجم ﴾

لما كانت الامة العربية المستظلة بالظل العثماني تشكل نصف الهيئة الاجتماعية (على وجه التقريب) من الدولة العلية وبناء على ما شاهدت من بني العرب وعلى الاخص ابناء وادي النيل وشدة اشتياقهم الى تتبع أحوال الخلافة العظمى اشتياق الظمآن الى الماء رأيت من الواجب ان اقوم بترجمة هذا الكتاب نظراً لما يحتوي من الحقائق التاريخية التي تهم كل من طلعت عليه الشمس من المسلمين خصوصاً والعثمانيين عموماً مع اعترافي بالعجز والتقصير وعدم الوقوف على كنه اللغة العربية وان كنت من ابنائها . واملي وطيد بان ارى من القراء الكرام عفواً واسعاً عما حصل من الهفوات الكثيرة في تعريب هذا الكتاب وقد لا يخفى على ذوي العقول النيرة ما يعتري من هو على شاكلتي من المصاعب الجمة حيث انها اول خطوة خطوتها في هذا السبيل وبالله استعين

١ ايلول سنة ١٣١٩ محمد توفيق جانا

كلمة للمؤلف

لا أقصد بكتابي هذا تفصيل ما وقع أيام سلطنة السلطان عبد العزيز وما امتزج بها وتفرع عنها شرحاً مفصلا موضحاً فتلك أمنية يبعد نيلها على همة هذا العاجز لعظيم اعتقادي بان تأليف كتاب كهذا فى وقتنا الحاضر ضرب من المحال لان تأليف الكتب التاريخية في عصرنا هذا يحتاج الى وجود مادة واسعة تكون روحاً للتأليف وضف الى هذه الحاجات الكبرى اثاراً كثيرة يستعان بها علىَ ضبط أسباب ومنشأ الواقعة التي هي أساس التأليف ومن العبث انه يطمح لكتابة تاريخ جامع مع فقدان ذاك الشرط . ولا خفاء انه لا يوجد لدينا معشر العثمانيين شيئاً من الاثار (التى نحتاجها لنستعين بها) على التدوين في جميع أدوار التاريخ العثماني . والادلة على استكمال هذه النواقص مفقودة . أما الكتب التاريخية التي تبحث في أحوال الممالك المحروسة وأدوارها الجديدة فكثيرة ولكن كلها لجماعة من الكتاب الاجنبيين ولذا فانها لا تفي بالغرض المقصود اذ يدور رحى كل مافيها على محور الاغراض النفسانية وزد على ذلك عدم وقوف مؤلفيها على احوال العثمانيين ومن

جهة اخرى فانه لا يوجد أثر من اثارهم مأمون الجانب من الاغراض ولو وجد شيء فلا يخلو من النقص فتقارير سفراء الدول (التي تزداد علائقهم السياسية يوماً عن يوم مع المملكة العثمانية) المرفوعة لجانب حكوماتهم لم تنشر جميعها . وأما غير هذه التقارير فليس سواه الا الوقوف على المخابرات السياسية الخفية التي يمكن التوصل بها للتدقيق في المواد التي هي موضوع البحث وهذه هي الحقيقة بعينها . ومع اعتقادنا استحالة تأليف تاريخ كامل عن احدى وقائع التاريخ العثماني نرى السير في هذا الطريق لا يخلو من الفائدة . والسعي الجزئي ينتج فوائد جمة .

لان اظهار الحقائق المستورة بما أمكن الحصول عليه من المعلومات وربط سلسلة حوادث ببعضها واستخلاص واقعة سياسية مهمة كواقعة السلطان عبد العزيز من بين غياهب الشك التي سدلت على ماضي التاريخ العثماني أمر سهل المنال . ويوجد عندنا كما يوجد في أوروبا كتاب واحد يبحث عن سلطنة السلطان عبد العزيز فيمكننا نستعين بهذه الكتب على كتابة تاريخ حكم السلطان عبد العزيز وما وقع في اخره من الأحوال الجالبة للأسف . والتأليف الاخير لفي غاية من الاهمية

عندنا لانه محرر بيراع (أحمد أفندي مدحت) الكاتب التركي الشهير . وان لم يشاهد هذه الحادثة بعينه ويشترك فيها بنفسه ولكنه كان مقرباً ممن اشتركوا في تدبيرها . وهذا السبب هو أعظم باعث لزيادة قيمة هذا الأثر في أعيننا وفي الحقيقة ان هذا الاثر أي (أس الانقلاب) أحسن ما كتب في هذا الموضوع . ولو وضع في بلاد غير البلاد العثمانية لكان أعظم قيمة وأعم نفعاً اذ ما الفائدة منه وقد سار في طبعه (كما يقال) على البروغرام الذي وضع له من لدن جلالة خليفة هذا الزمان أو في الحري رسم على الخطة التي ترضيه . وعليه لا يمكننا ان نأمن جانبه تماماولو طالعناه لوجدناه يعقب في كل سطر بمقصد خصوصي .

ولا يمكننا ان لا نأسف على هذه الاحوال . مع ان احتياجنا شديد لتأليف تاريخ واقعة كواقعة السلطان عبد العزيز تشكل فصلاً مهما في التاريخ العثماني تكون طاهرة من كل غرض ولها علاقة كبيرة مع هذا الزمان المحزن الذي نحن فيه . أما الافكار في هذه المسئلة فمتباينة متضاربة اذ يعد بعضنا حالتنا الحاضرة وما نابنا من المصائب والرزايا نتيجة طبيعية لهذه الواقعة المؤلمة . والبعض يعدها دليلا على مبدأ لمستقبل حسن

وتنور أفكار العثمانيين . وعلى كلا الحالتين فان الافكار المذكورة تبرهن لنا على شدة الاحتياج لظهور اثر جديد يبحث عن واقعة السلطان عبد العزيز غير قاصدين من عملنا الا تسهيل السبل المؤرخين الذين يأتون بعدنا وليكون دليلا لهم على سلوك الطريق المستقيم وعلى ما ارى خصوصاً وانه وضع بعد كثير من المحاكمات العمومية الخالية من شوائب الاغراض . على تفصيل الواقعة الماضية ولا ندع مع هذا كله انه خلو من النقص والعيب لان عدم كفاية المأخذ وفقدان المعلومات الرسمية سببت بلا شك حصول هفوات متعددة واذا وجدت مادة نعتقد بصحتها فهي بلا شك خلو ملاحظاتنا على المستقبل من كل غرض وبنائها على طهارة القلب وخلوص النية وموافقة قرائنا على صدق هذا الامر كاف لنيل ما نرغبه ونتمناه وبالله التوفيق

٢٠ كانون الثاني سنة ١٣١٩ أحمد صائب

الوقعة الخيرية ونتيجتها

السلطان سليم الثالث — السلطان محمود — المشكلات التي اعترت تشبثه للاصلاحات — السلطان عبد المجيد — وزراء ذلك الزمان : رشيد باشا ، عالى باشا ، فؤاد باشا — الثورات الداخلية ومحاربة القريم • ظهور الاحوال الغير المأموله في الاصلاحات — التكاسل في نشر وتوسيع المعارف — نواقص التشكيلات والتنظيمات العسكرية واسبابها — المالية العثمانية — ولوج الدولة باب الاقتراض لاول مرة — وفات السلطان عبد المجيد •

تصفح التاريخ العثماني من بدء القرن الحادي عشر على الحساب الهجري حتى الآن تر السلطان سليم الثالث اعظم سلطان واعدل خليفة ارتقى اريكة آل عثمان وبويع بالخلافة الاسلامية الكبرى وتعلم انه كان من اكبرهم همة واكثرهم غيرة على مصالح الدولة والدين • تولى الخلافة او هي اريكة آل عثمان واحوال الدولة فوضى والبلاد من اقصاها الى ادناها مصبوغة بالدماء والخلل يكتنف مصالحها والعلل تتمشى في ادارتها فلم يقبض بيده على صولجان الملك حتى اخذ يصلح مخلها ويداوي معتلها ولم يمضي عليها وقت قصير حتى بلغ من ذلك السعي غايته فوضع للبلاد قوانين وقواعد تضمن للرعية العدل الشامل وتكفل نفاذ

ما ابتغاه من تحسين واصلاح. لكن الله شاء ان يقوم من رجال الدولة اوهم افراد الامة اقوام خافوا ان تنزع تلك الاصلاحات عنهم نعماً يتلذذون باطايبها ويرتعون في بحابحها وان يناقشون الحساب من بعد هذه الاصلاحات وان تكون القيد الذي يغل ايديهم عن المظالم والمغارم فاخذوا يدسون الدسائس ويقيمون العقبات في سبيل ما ابتغاه السلطان العادل. بل بلغ من قيامهم انهم حرضوا عساكر الانكشارية (وهم عبارة عن وحوش في صورة جيش منتظم) على ان يرفضوا كل قانون جديد يبتغي السلطان تنفيذه ولسوء حظ الامة صادفت مساعيهم نجاحاً وانتهى الامر على ما ارادوه وفوق ما طمحت اليه انفسهم وانقضى الجدال بخلع السلطان وقتله. وكان ذلك من اعظم الجرائم على الامة والبلاد وحجر الاساس في تدبير المكايد والدسائس للسلاطين وان كان قد تقدم تلك الجريمة جريمة اخرى من نوعها وعلى ذلك انقضت حياة السلطان سليم الثالث وانطفأت بموته منارة العدل التي شيدها وغيض ينبوع الاصلاح والحرية وهكذا سودوا صفحات التاريخ العثماني بما تسببوا في حصوله

ثم تولى بعده السلطان محمود والمشاكل في السلطنة كبيرة

والمصاعب عظيمة والامر فيها لاولئك الانكشارية يجددون ما ارادوا بلا خوف ولا حساب وكان السلطان ذا نفس عالية ومباديء كريمة واميال مفطورة على حب العدل والخير ورغبات مطابقة لرغبات سلفه السلطان سليم الثالث بلا فرق ولا اختلاف . فاراد ان يسير بالسلطنة العظمى على ما يوحي اليه طبعه فحالت الايام دون مرامه واوشك ان يصيبه ما اصاب سلفه اذ اجتمع الانكشارية في ميدان هنالك يدعى (آت ميدان) وتآمروا على قتله لكن المقادير مدت اليه يدها ورفعت عنه شر المتآمرين ومكنته منهم جميعاً فارسل عليهم من جيشه المخلص في ولائه كتائب أعملت في رقابهم السيف ولم ينج منهم أحد . وتسمى هذه الواقعة في التاريخ العثماني (بالواقعة الخيرية)

زين ذلك العادل التاريخ العثماني بافعاله واعلن للعالم عزمه على ترك النظامات القديمة التي لم تكن الا وسيلة لهدم اركان الدولة والنزول بالوطن الى دركات الانحطاط والهوان ثم أزمع على تشكيل هيئة ادارية توافق الزمان والمكان وادخال اصلاحات جدية في الامور الداخلية . فاحدثت هذه الارادة تأثير كبير في الداخل والخارج اذ كانت الدول الاوروبية خلواً من تمام

الوقوف على أحوال الشرقيين كما ينبغي فكانت تعتقد فيها بعض الاعتقادات الباطلة وتظن في الدولة العثمانية وآلها انها أمة لا قدرة لها على نقل قدمها خطوة الى الامام لتنظيم واصلاح أمور الملك (وهو اس التقدم المدني الحاضر) . ولكن حصول هذه الواقعة ومحو اثار الانكشارية الذين هم العقبة الكؤد في سبيل الاصلاح وجلب ذوي الخبرة والقدرة من أوروبا لتخديمهم في أمور الدولة وهذا كله أوجب تبديل الافكار السيئة التي خالجت ضمائر عقلاء وساسة أوروبا وتمكنت من عقولهم حتى أحدثت الخوف عند الكثيرين منهم وكان بين الاوروبيين فريق يعتقد انه اذا انتظمت شؤون الدولة العثمانيـة وادارتها على حسب القوانين الغربية وانتشرت العلوم والفنون الحديثة المتنوعة بين افرادها وكانوا يرون أيضاً ان القوة المعنوية والاقتدار العسكري اللذان هما نتيجة الهامات الدين الاسلامي القويم اكبر واسطة لترقي الدولة العثمانيـة من كل وجهة ويعيدانها لمجدها القديم وعليه فمن المحتمل ان هذه الاحوال تؤثر على موازنة أوروبا السياسية

هذه نتيجة ماحصل في الخارج من تأثير تلك الاصلاحات اما في

الداخل فان كافة الاهالي كانوا في هرج ومرج من جراء امال السلطان الخيريه حتى ان الملة يئست من مستقبلها. والسبب فى ذلك اليأس هو ظهور نتيجة السيئات الذي كانت الدولة غريقة لججها منذ ثلاثة قرون. وقد نشأ عن توالي العصيان فى الولايات والقلاقل الكثيرة عجز السلطان المرحوم عن اتمام مآربه وغلت يداه عن كل عمل . لان القسم الاعظم من رجال الدولة كانوا يشكون من أفعال السلطان جهاراً فرغبوا عن العمل بحسب رأيه مفضلين البقاء على القديم وعدم الخروج عما اختطه الآباء والجدود (بعد ان أحسوا بمقاصد السلطان وعلموا ان غاية مايرمي اليه هو تقليد أوروبا في اصلاح الادارة وتنظيم أمور الدولة) بالرغم عما كان ينتابهم من ظلم الانكشارية والخوف الشديد الذي كان يخامر قلوبهم منهم

ولولا قوة عزم السلطان واستعمال بعض اركان الحكومة الشدة مع الأهالي لآل الامر الى شق عصى الطاعة على جلالة خليفة رسول رب العالمين

غير ان ذاك القتال الدموي الذي جرى بالامس فى (آت ميدان) مع الانكشاريه كان لايزال رسمه باقياً فى مخيلة الكل ولذا

لم يبق فى الاستانة احد يرجى منه الاندفاع للخروج على السلطان

وخلاصة القول ان السلطان المرحوم توفق لنيل بغيته الوحيدة وهي قلب ادارة المملكة ببذل النفس والنفيس فوطد دعائم النظام على اسس متينة ثم صرف الهمة للتشييد على ذلك الاساس وهو عبارة عن موادها الكافلة لحفظ العرض والناموس والامن على الاموال والارواح ويتفرع عنها تقدير الويركو الضريبة وترتيب العساكر وما شاكل ذلك .

وكانت الاصلاحات التي اسسها السلطان محمود في ايام ملكه عبارة عن تأسيس النظام العسكري وتغيير ازياء الاهالي ومع ان المادة الاخيرة يراها البعض قليلة الاهمية في اول وهلة ولكن اقل ملاحظة على وجود التعصب والجهالة عند اهالي البلاد العثمانيه في ذاك الحين وما تكنه صدورهم من البغض لاصول المعيشة الغربية تدل على ما كان يعتري هذه الاصلاحات من الموانع الكثيرة

ولما كان لابد لتنظيم ادارة امور الدولة واتمام الاصلاحات المطلوبة من انشاء مدارس يستخرج منها رجال اكفاء لخدمة الدولة ونشر العلوم والمعارف وبما ان هذه النقطة لم تخف على نظر

السلطان قرر تأسيس جملة مدارس وبوشر حالاً فى انشاء بعضها فاصبحت هـذه التوفيقات العظيمة كافية لتخليد الذكر الحسن لجلالة السلطان وتخليد اسمه الى الابد

ولكن تزايد الاختلال الداخلي وظهور العصيان المستمر ومحاربة بعض الدول الخارجية ، لم تترك مجالاً لتنظيم الادارة الملكية والسعي لاجراء الاصلاحات الاخرى على قدر الامكان

جلس على سرير الملك بعد السلطان محمود خان العادل السلطان عبد المجيد وفى ايامه ظهر ميل عظيم من الاهـالي للاصلاحات والسير فى طريقها القويم وكان من اللازم حينئذ التوغل في هذا الطريق نظراً لموافقة الزمان ولكن اكتفى وقتذاك بوضع خط الكلخانة الهمايوني وبعض النظامات وهي كل ما جرى من الاصلاحات فى هذه المدة

وهكذا ذهب ذاك الوقت الثمين سدى واستعمل على غير هدى ومع اقرارنا باجتماع أحوال كثيرة كانت السبب في التكاسل والتسامح ولكن لا تنكر وجود المسؤلية عند ذوي المكانة فى ادارة الدولة من الموظفين . ولا يخفى على كل من طالع تاريخ هذه الفترة التي تزيد سنواتها عن اثنين وعشرين

عاماً ونصف ان السلطان وبعض الوزراء كانوا عالمين باسباب هذه الاحوال وانه لابد من السير في الطريق الذي سار عليه السلطان محمود ولكنهم لم يظهروا أثراً مما كان يجب عليهم اظهاره من الحميـة والغيره واكتفوا بتسكين الشؤون القليلة الاهمية التي كانت تحصل في بعض الجهات من سوء الادارة وحصروا جل همتهم في الحرب مع الروس . وفي عهد هذا السلطان ظهر عدد من الوزراء ذوي القدرة والهمة كرشيد باشا وعالي باشا وفؤاد باشا وكان هؤلاء جميعهم يشغلون الطبقات العلياء في ادارة الدولة وبيدهم زمام الامور وأغلبهم ممن نشأوا في عهد السلطان محمود .

وهم من ذوي الفكرة النيرة والخبرة التامة باحوال الدولة العثمانية والسياسة العمومية . ولـكن ما الفائدة اذ لم يجدى منهم نفع في وقت كهذا كان أثمن فرصة عندنا نظراً لمساوئ الامور التي هي علة العلل وأساس كل خلل في الطبقات العليا من مراتب الدولة من قديم الزمان . وقلة المـال التي هي نتيجة سوء الادارة وندرة الوسائط التي تتوقف عليها ثروة البلاد وسعادة العباد واختيار مصارفات كثيرة لتسكين العصيان

الذي كان يبدؤ كل آن في جهة اضطرت الدولة لصرف جميع قواها . وكانت هذه الزعازع الداخلية سبباً لتضعضع مركز الدولة وضعف نفوذها بين الدول وفي هذه الاثناء اثار الروس (وهم أعدائنا الازليون الألى لا تغفل لهم عين عن انتهاز كل فرصة تسنح لنيل مقاصدهم وقضاء لبانتهم منا) غبار المسئلة الشرقية

وهكذا حصلت محاربة القريم . ولولا معاونة الانكليز والفرنساويين لنا في هذه المحاربة بناءً على منافعهم السياسيه لما أمكننا الى الان تعيين المهالك التي كادت ان تقع فيها الدولة ولو على وجه التخمين

فان الدولتين اعانتا دولتنا اعانة خالية من شوائب الغرض وكانتا سبباً لمحافظة استقلالها في هذه الاثناء وتركتا لنا ميداناً فسيحاً ووقتاً طويلاً لاجراء الاصلاح لان اندحار الروس ذلك الاندحار المبين جعل تحككهم بالشرق في مدة قصيرة من رابع المستحيلات .

وكان الواجب علينا اذ ذاك ان نحترس من الوقوع فى ورطة كهذه . ونبذل جهدنا لاتمام الاصلاح (بعد ان من الله علينا وجعلنا فى مركز يمكننا من ان نخط خطوات سريعة فى

(سبيل التقدم) ومحو تصورات عدونا الذي لابد له من اعادة الكرة علينا بعد زمن قليل . وكان من أوجب الواجبات علينا ان نقدر مركزنا المنيع حق قدره ونستميت فى رتق ما فتق وتقويم ما أعوج من الامور لان هاتين الدولتين اعانتانا فى حرب القريم وقد افهمتانا بواسطة سفرائهما ان غايتهما الوحيده قاصرة على ما قدمنا أى ترك ميدان واسع لنا حتى نصلح أمورنا ونوقف الدب الابيض عدونا عند حده

ولكن هيهات! فان هـذه النصائح والمظاهرات الوديه كلها كانت صيحة فى واد اذ لم يعار لها اذن صاغية او يعطي لها أقل أهمية .

بقيت ادارة الدولة على ما كانت عليه قبل الحرب وكل من اهل السراي والوزراء سابح فى بحار اللذائذ . ولم يسع احدهم لحل معضلات الامور ومع انه من العبث الاتيان على اسباب عدم اجراء شيء يفيد الملة من ادارة الدولة فى الدور المذكور بيد انا نرى ايضاح الاسباب التي انتجت خطأ اولياء الامور (اي السلطان والوزراء) لايخلو من الفائدة .

ومن البـديهيات ان علو منزلة الدول واكتسابها للقوة

وعزة الجانب لا يتوفر الا بترقي درجة العلوم والمعارف فى ملكها وانتشارها بين افرادها فاي ملة من الملل بلغت درجة عالية فى الترقي العلمي والمدني لا بد وان تصل قوتها وانتظام امورها الى هذه الدرجة وهي حقيقة واضحة لا ريب فيها

فمهما كانت عليه احدى الدول من كثرة العدد وسعة الاراضي فانها تبقى فى عداد الدول الثانوية اذا هي بقيت محرومة من العلوم والمعارف وهذه دولة الروس اكبر مثال وهو امر يمكن اثباته من تاريخ الدولة المذكورة. فالروس اكثر الدول الاوربية على وجه الانفراد عدداً ولهم من سعة الملك ما لا يمكن حصره ومع هذا لم تحز هذه الدولة النفوذ الذي هي عليه الآن بين الدول حتى القرنين الآخرين اي منذ ظهور رجل فيها يقدر الخوارق العلمية والفنية حق قدرها كبطرس الاكبر ولم تعد فى مصاف الدول العظمى الا بعد دخول المدنية الغربية فيها وانتشارها بين اهليها

ومهما طال بنا الكلام عن المعارف فليس كل ما نبديه الا نقطة من بحر فتأثير المعارف على استعداد الامة اعظم من أن يقدر ومهما بلغ قوم من الغنى المادي بالزراعة او نحوها

فانهم لا يقدرون بشيء ما داموا خلوا من العلم . فالشعب لا يرقى ولو وطدت دعائم قوانينه على مبادئ العدل والانصاف ما لم يكن رائده العلم والمعرفة بل لا يمكنه الاستفادة من العدالة والانصاف ما لم يستنير بنبراس العلم فلا يقف على حقيقة شيء بدون المعارف ولا يركن غوامض الامور بدونها ولا تقوى أمة على ردع أهوائها النفسانيـة التي نشأت معها بل تبقى محرومة من مزايا تقـدير قيمة الوطن الحقيقية فتصبح الحرية والذل عندها سيان ولا تنجو من التعصب بمجرد معاملتها للملل الاخرى ولا تدرك كنه الحقيقة وهكذا تحيا هدفاً لاستهزاء الامم المتمدنة لا اعتبار لها عنـدها بل تعد امامها كخادم أو أسـير . وصفوة القول ان الدولة التي لا تنشر المعارف بين أفرادها تبقى دائمـا هدفاً للسقوط والاضمحلال ولا يمكن لهـا المحافظة على سر وجودها بين الدول ومن هـذا كله يتضح للقارئ باجـلى بيان انه كان من الواجب على أولياء الامور في الدولة بعد السلطان محمود ان يبذلوا الجهد في نشر العلوم والمعارف وتعميمها بين الافراد وادخال المدنية العصرية في انحاء البلاد

ولـكن هيهات ! فانهم لم ينتبهوا الى هذا الامر ولم يمنحوا الامر أقل أهمية ولا يظن القارئ الـكريم اننا ممن يعتقد بان تعميم المعارف عندنا الآن مما يخرج بوطننا الى ساحل السلامة. كلا ثم كلا انا لا نعتقد ذلك مطلقاً : بل الذي نراه هو ان المعارف لا يقتطف ثمرها عاجلا ولا بدلها من زمن طويل . وجلّ ما نرمي اليه هو انا لو سرنا في زمن السلطان عبـد المجيد خطوة نحو انتشار المعارف لامكنا الآن ان نجني منها قطوفاً دانية ولـكنا الآن في أرغد عيش وأهنأ بال

بل كنا الآن بغنى عن أوروبا ولـكنا نتدارك احتياجاتنا بنفسنا وتكفينا معاملنا مؤنة ما نحتاج اليه من الخارج . . .

. . . . . .

كانت المعارف في عهد السلطان عبـد المجيد حتى الاصلاحات التي اعلنت رسمياً بخط الـكلخانة الهمايوني وزفت بها البشرى الى العالم العثماني وطرب لها كل محب للدولة العثمانية حبراً على ورق أو محض تفكير لم يبرز الى عالم العمل وطوى في سجل الاوهام

فلو ضربنا صفحاً عن المعارف يمكنا ان نقول ان ذكر كلمة